ثورة الهاتف الخلوي الاتصالية والتواصلية

د.عبدالرحمن محمد الشامي
أستاذ الإعلام والاتصال المشارك
كلية الإعلام- جامعة صنعاء
aalshami8@gmail.com

مع فارق التشبيه، حيث صنعة الله لا يضاهيها صنعة البشر، ولا غيرها من الصناعات الأخرى، مهما كانت جودتها، ومهما بلغت درجة إجادتها، غير أن هناك شيئا من المعاني التي ينطوي عليها البيت الشعري، تنطبق على الهاتف الخلوي والذي يقول: «أتحسب انك جرم صغير وفيك اجتمع العالم الأكبر». فالهاتف الخلوي هو أكثر من وسيلة اتصالية في وسيلة واحدة، فهو جهاز: «راديو»، و«تلفزيون»، و«صحيفة»، و«بريد»، و«كمبيوتر»، و«كاميرا تصوير: فوتوغرافي وفيديو»، و«مسجل»، و«أتاري».. وغيرها، فضلا عن كونه وسيلة اتصال هاتفي.

فهذا الجهاز الصغير الذي يطلق عليه: «المحمول» أو «الموبايل» في بعض البلدان العربية، أو «السيار» و«الجوال» في بلدان أخرى، أو «الخلوي» كما يحلو للبعض تسميته، تحمله اليوم أيادي الشباب الصغار قبل الكبار، أو يعلقونه على المعاصم، ومنهم من تراه يحمل -أحيانا- أكثر من هاتف واحد، كدليل على الأهمية: حقيقة أو ادعاء، وقد يكون ذلك مؤشراً على الغنى أو الطبقية في عصر تتآكل فيه الطبقات، حيث يصعد أناس، لم يكونوا بالأمس من علية القوم، ويهبط مكانهم آخرون، كانوا بالأمس من الطبقة «الأرستقراطية»، وغير ذلك من الدلالات الاجتماعية التي جلبها ظهور الهاتف الخلوي، والتي تتفاوت ما بين مجتمع وآخر، ولكن ليس بالضرورة أن تكون صادقة في تعبيرها عن الأشخاص، أو معبرة في دلالاتها الاجتماعية، فكم من شاب أو شابة في مقتبل العمر، من أبناء البلدان الفقيرة، أو تلك التي توصف بالأشد فقراً، يعيش في حي فقير، تعوزه المرافق الأساسية، ولا يعرف شيئا من الخدمات الحديثة، ويلتحق بتعليم عام متواضع، ولكن تراه، يحمل هاتفاً حديثاً أو أكثر!

وبصرف النظر عن مدى صحة هذه الدلالات الاجتماعية، فإن الهاتف الخلوي، ولد مظاهر اجتماعية، ضمن «ثقافة» طاغية، أحدثتها ثورة الاتصالات المتعاظمة التأثير، وتتجلى مظاهرها

في حياتنا يوما بعد آخر، فالهاتف الخلوي، ليس مجرد وسيلة لإجراء المكالمات الهاتفية، على عهدنا بالأجهزة السلكية واللاسلكية، ولكنه يتجاوز ذلك بكثير، جراء الاستخدامات العديدة التي يتيحها، ومن ثم تأثيراته العميقة والمتنامية في حياتنا اليوم؛ كباراً وصغاراً، والأعمق منها ما تحمله الأيام غداً.

فالهاتف الخلوي وسيلة اتصال وتواصل غير مسبوقة، وقد وصل في السنوات الأخيرة إلى قمم الجبال، وسكن بطون الأدوية، وتغطي شبكاته القرى والبيوت المتناثرة، كما تغطي المدن والمحافظات، موفراً بذلك مد الأسلاك، وتشييد الشبكات التي كانت تحول دون أن يتمتع أبناء المناطق النائية، وبخاصة في البلدان التي تعاني من ظاهرة «التشتت السكاني»، بنعمة الاتصال والتواصل مع الآخرين: الأقربين منهم والبعيدين، ومن ثم فإنه حقق «ديمقراطية التواصل» التي يتمتع بها اليوم كل قادر من الناس على اقتنائه، في أي مكان حل أو نزل، بعد أن كاد «المحمول» يكون في يد الجميع.

وكما قرب الهاتف الخلوي المسافات الاتصالية بين الشعوب، فقد ألغى الحواجز الاتصالية، وجعل العالم في متناول الأصابع، من خلال إمكانية النفاذ من خلاله إلى شبكة الإنترنت العالمية من أي مكان كان فيه الإنسان، دون الحاجة إلى جهاز «كمبيوتر»، ولا أسلاك تليفون، أو اشتراك في خدمة الانترنت العالية السرعة، وبخاصة في ظل الجيل الثالث من أجيال الهاتف الخلوي، كما مكن من صناعة الاتصال، حيث أصبح بمقدور المرء أن يكون قائماً على الاتصال، صانعا للخبر من أي بقعة في أرجاء المعمورة، وبهذا تتحقق «ديمقراطية الاتصال».

أما الوظيفة «التواصلية» التي تتيحها الخدمة «البريدية» لهذا الهاتف، فلا تقل شأنا عن غيرها من الوظائف السابقة، فملايين الرسائل القصيرة SMS أو رسائل الوسائط المتعددة MMS يتبادلها الناس حول العالم في كل يوم، موفرة الكثير من الجهد والمال والإزعاج والحرج الذي يمكن أن يترتب على كثرة المكالمات الهاتفية، كما تؤدي وظائف تواصلية عديدة في حياة الناس، وبخاصة في الأعياد والمناسبات: الموسمية والأسبوعية، من خلال الرسائل التي يتم تبادلها من أجل هذا الغرض، إلى درجة أنها أصبحت سلوكاً اتصالياً يحرص بعض الأفراد على القيام به في كل أسبوع إلى من تضمهم قائمة «بريده» الهاتفي، ومن ثم فهي تعزز التواصل الاجتماعي بين الناس، وتعمق أواصر القربى والصداقة وغيرها من المشاعر

عديدة هي استخدامات الهاتف الخلوي وخدماته، وكذا أخطاره ومخاطره

الإنسانية الأخرى، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي.

وعلى نحو خاص؛ يبدو الهاتف الخلوي صديقاً حميماً للشباب، دائم الصحبة لهم، فمن خلاله يستمعون إلى الأغاني والموسيقى المحببة إلى أنفسهم، ويشاهدون المقاطع القصيرة المصورة، كما يقومون بواسطته بالتراسل عبر «البلوتوث»، فضلاً عن الخدمات الاتصالية والتواصلية التي تقوم على الاشتراك، كتلقي الأخبار، و«الدردشة» وغيرها من الخدمات الأخرى المتجددة، بتطور هذا الجهاز الصغير الحجم، المتعدد الاستخدامات.

وفي المقابل؛ فليس كل ما جاء به الهاتف الخلوي خيراً محضاً، فهناك مساوئ تترتب على بعض استخداماته، منها ما يصل حد الخطر، فقد ألغى الخصوصية، واقتحم أماكن العبادة.

أما المخاطر الأخلاقية التي يمكن أن تترتب على استخدام الهاتف الخلوي، فتلك واحدة من القضايا الشائكة، المنوط بالأسر التنبه إليها، وبالأفراد المستخدمين لهذا الهاتف، بتحكيم الضمير الإنساني في الترفع عن إلحاق الضرر بالآخرين من خلال أي استخدامات سلبية له، سواء تلك التي يمكن تبادلها بين الأفراد على نطاق ضيق، أو التي يمكن أن تتم على نطاق جماهيري، من خلال تحميلها على أي موقع من مواقع شبكة الإنترنت العالمية التي لا ترد قاصدا، فالمسؤولية الشخصية، والالتزام الأخلاقي هما مناط الرهان لتجنب الأضرار المحتلمة لسوء استخدامه، وأعراض الناس أمانة سيسأل عنها أمام الله كل من يفرط بحقها.

عديدة هي استخدامات الهاتف الخلوي وخدماته، وكذلك أخطاره ومخاطره، وما قدمه خلال السنوات الأخيرة، يبدو غيضاً من فيض، في ظل التطور التكنولوجي الذي تشهده صناعة هذا النوع من الهواتف، مما يمكن القول معه؛ بأن القادم أعظم، ومن ثم فالسؤال؛ هل نحن واعون بحجم التحديات التي تترتب على الهاتف الخلوي؟